الخلاصة الفلسفية

للقديس توما الاكويني

نظر للاب لويس شيخو اليسوعي

منذ باشر سيادة المطران الماروني العلّامة بولس عوّاد رئيس اساقفة قبرس حالاً بطبع « الخلاصة اللاهوتيّة للقديس توما الاكويني الاستاذ الملكي » معرّبةً بقلمه ادبهُ الله اضحى اسم ذاك النابغة شائعاً في بلادنا الشرقيّة بعد ان كان ذكرهُ منزوياً في دوائر طلبة اللاهوت ومعظمهم غالباً لا يستطيعون الاستقاء من مناهله الصافية لجهلهم اللغة اللاتينيّة

على انّ الخلاصة اللاهوتيّة ليست الّا قسماً فقط من تآليف الاكويني الضخمة التي لا ينظر الناظر الى مجموعها الّا يأخذهُ العجب من مضامينها ووفرة ابحاثها التي كادت تشمل كلّ المعارف البشريّة الشائعة في ذلك العهد . وتزيد حيرة المتبر اذا تذكّر انّ القديس توما مات في عزّ كهولته قبل ان يبلغ الخمسين من عمره (١٢٢٥—١٢٧٤) وقضى حياتهُ في التعليم وفي خدمة الكنيسة واحبارها الاجلاء متنقّلاً زمناً طويلاً في مدن فرنسة والمانية وايطالية تتنازعهُ الاشغال الشاغلة وتتجاذبهُ المهامّ الخطيرة . فكيف امكنهُ يا تُرى ان يتفرّغ لكلّ هذه المصنّفات في اغمض العلوم العقليّة وارفعها قدراً واسماها معنًى ؟ حقًّا اننا لا نجد جواباً على ذلك غير ما اكّدهُ هو لاحد اصدقائه انهُ كان مثابراً على الصلاة فينير الله عقلهُ بالمعارف السامية ومن اقوالهِ : « اني تعلّمت بالصلاة اكثر ممّا تعلّمت بالدرس » وشهد بعض رفقتهِ عليهِ قائلاً انهُ كان في درسهِ كالصلّي ولم يكن يكتب ولا يقرأ ولا يجادل الّا بعد الصلاة . ولا غرو فانّ نور الله كشف لعقلهِ غوامض تلك العلوم فأوضحها بكتاباته العجيبة التي استحقّت لهُ أن يُدعى شمس المدارس وملاك التعاليم الدينيّة ونَسْر اللاهوت فصار اماماً تستضيء بنبراسهِ المدارس الكاثوليكيّة فاحرزت السَّبق على سواها وسارت في الطريق المستقيمة دون خوف من الضلال . ولذلك لم يزل الاحبار الرومانيّون يحرّضون المؤمنين ولا سيما دعاة الدين وارباب الكنيسة على درس تآليفهِ حتى انّ

احدهم كان يقول : « انَّ القديس توما لم يحتج الى عجائب ليُدرَج في مدارج القديسين لانَّهُ صنع من العجائب على قدر ما شرح من المسائل المعضلة ». وقد اعترف بذلك اعداء الكنيسة مرغومين فانَّهم يعدُّون القديس توما كطريقة تدكُّ كل تعاليمهم الباطلة وتنقضها حتى ان لوتاروس كان يقول : « ألغوا تآليف توما وانا ادمّر الكنيسة »

ومن تآليف القديس التي تسترعي انظار العلماء عموماً والفلاسفة خصوصاً كتابٌ احرز له شهرة عظيمة في زمانهِ وهو معدود حتى اليوم بين التآليف النفيسة المتقنة نريد بهِ كتابهُ المعنون بالخلاصة الفلسفيَّة (Summa Philosophica) او بالخلاصة ضدّ الامم (Summa contra Gentiles)

فهذا الكتاب قد صنَّفهُ القديس توما سنة ١٢٦٢ وذلك بايعاز احد رؤساء رهبانيَّتهِ الدومنيكيَّة المتقدمين فيها بالعلم والفضيلة القديس ريمندس بنافور. فهذا الرجل العظيم الذي تولَّى مدَّة الرئاسة العامَّة في رهبانيَّتهِ خصَّ نفسهُ زمناً طويلاً بالتبشير في الانجيل في وطنهِ اسبانية بين المسلمين واليهود في مملكتي اراغونية وقسطيلة بعد فتحهما على يد جاك الاوَّل (١٢١٣—١٢٧٦) والفونس العاشر المعروف بالحكيم (١٢٥٢—١٢٨٤) فبارك الله مساعيهُ واجتذب الوفاً منهم الى الدين المسيحي فتنصَّروا

لكنَّ القديس وجد بين المسلمين قوماً من العلماء كانت شاعت بينهم آراء فلسفيَّة واهنة اخذوها من بعض اساتذتهم لاسيما ابا الوليد محمَّد الشهير بابن رشد فانَّهُ كان نشر بين اهل ملَّتهِ مذاهب الفلاسفة الاقدمين ساعياً بتطبيقها على الدين الاسلامي فانتشرت بذلك مزاعم باطلة في جوهرهِ تعالى وفي تكوين الخليقة والنفس البشريَّة وبعث الاجداد تصدَّى لتفنيدها بعض المسلمين نفسهم وجرت في ذلك مناظرات بلغ صداها الى عهدنا في كتاب تهافت الفلاسفة لابي حامد الغزالي وفي تهافت التهافت لابن رشد وفي غيرهما . وقد بلغ من امر هذه المجادلات انَّ خلفاء المسلمين في الاندلس صادروا المتفلسفين واتلفوا كتبهم خوفاً من فشوّ تعاليمهم بين الشعب

ولمَّا ظهر القديس ريمندس كانت تلك الحركة قد خمدت نوعاً الَّا انَّ النار كانت لم تزل كامنةً تحت الرماد ولذلك طلب من توما الاكويني ان يضع كتاباً مبنيًّا على

الاصول الفلسفيَّة الارسطاطاليَّة دون التطرُّح في اوهامها. فاجاب القديس الى ملتمسه وكتب هذه الخلاصة الفلسفيَّة المامونة ايضاً كما سبق بالخلاصة ضدّ الامم فضمَّنها لُباب الفلسفة الصحيحة في كل الابحاث التي تهمُّ معرفتها العقل البشري

وقد سبقت الخلاصةُ الفلسفيَّة الخلاصة اللاهوتيَّة وهي بمثابة مقدِّمة واسعة لها قد جرى فيها القديس على طريقة علميَّة قريبة المتناوَل مباينة لطريقته المدرسيَّة الجدليَّة التي نهجها في الخلاصة اللاهوتيَّة فهو يوضح في كل فصل الادلَّة التي تثبتهُ من العقل دون الوحي والتقليد في القالب بحيث يسهل على القارئ ادراك البراهين وقوَّتها دون ان تشغلهُ شواغل الجدال. ولحضرة الخوري يرجس فرج صفير كلام في تعريف الكتاب نرويه له بحروفه :

« لا يخيَّل لك ايها القارئ ان القديس توما ينظر الى اضاليل خصوصيَّة كما يشير اليه عنوان هذه الخلاصة انما ينظر الى جميع الحقائق نظر مُقتاب لا تخفى عليه خافية ويلاحظها لحظاً يحيط بها ويبيِّنها ويُبطل ما يعترضها بأجوبة قاطعة مسكتة وهذا ما يصنعهُ ايضاً في الخلاصة اللاهوتيَّة ولكن على خلاف في المنهج وسببهُ ان مادَّة اللاهوت عقائد مُنزَّلة ولذلك كان اوَّل ما يأتي به في إثباتها شهادة الكتاب او الآباء ولا يأتي بالادلَّة العقليَّة الَّا ادعاماً لما يقرِّرهُ الوحي الالهي واما في الخلاصة الفلسفيَّة فعلى خلاف ذلك فانهُ يُثبت بقوة العقل والبرهان الحقيقة التي يتوخَّاها ثم يأتي بالشهادة متى لزم الامر تعزيزاً لها ولا يحجم اذ ذاك ان يستشهد إمام الفلاسفة ارسطاطاليس ولكن عن رويَّة وفكر ولا يتبعهُ مثل أعمى فما رآه صادقاً فيه عوَّل عليه والَّا أصلحهُ او تركهُ وهذه احسن طريق انتهجها لان العقل قاصر فيعثر اذا سار وحدهُ من غير هادٍ يهديه او كان لا يسير تحت ضياء الايمان الذي يدلُّنا على الطريق ويصوننا من التطرُّح في مهاوي الضلال فالايمان محكٌ يجعلنا نُميِّز بين ما هو كاذب وصادق وقد تدرَّع به القديس توما تدرُّعاً استدَّ به صاعده استداداً لم يحتمل عليه سواه فليس من مجاريه في كشفه عن اسرار الكائنات في اصلها وذاتها وفي ما بينها من النسب

« وقد اوقفنا القديس توما في فاتحة كلامه على الاسباب التي جعلتهُ يتحرَّى هذا المنهج مُبيِّناً لنا انهُ لمن الخاصّ بالرجل الحكيم ان يُفتِّش على الحقيقة التي تُدركهُ في الله وتحدو به الى دار الخلد والسعادة فمن الحقائق ما هو فوق الطبيعة وليس للعقل

ان يتناولها بذاته ومنها ما لا يتجاوز تخوم الطبيعة غير ان العقل في حالته الحاضرة لا يقدر ان يتحققها بدون الشهادة الالهيَّة لان الزمان قصير والعبارة صعبة والاهتمامات متواصلة والتفرُّغ الى طلاب العلم متعذر والعقل قاصر والاضاليل كثيرة وأنَّى السبيل الى الكشف عنها ولو تفرَّغ لها الرجل الحكيم. قال: ان كثيرًا ما يتمرقل العقل في مباحثه بحبائل الضلال لان العقل ضعيفٌ في احكامه فاذا تفاءل وقع في مهاوي الاوهام فيحدث عن ذلك ان كثيرًا من الناس لا يزالون يترددون في حقائق واضحة كلّ الوضوح وكثيرًا ما يختلط الكذب بالصدق اختلاطاً يجد اوهاماً وسفسطات تُنزَّل منزلة الحقيقة ولذلك كان ولا بدَّ لتقرير الحقيقة من عرضها على الانسان بطريق الوحي والايمان (ضد الامم ك ١ ف ٤)

« ولا يخيَّل اليك انهُ يكسر من قوة العقل او يلاشيه لاننا نراه يُصرِّح بان احسن ما يتعاطاه الحكيم توجيه العقل الى الهذيذ في الامور الالهيَّة وهذا ما يتوخَّاه في ما يكتبه فانهُ لا يدع حقيقةً ما لم يُعزِّزها بقوة العقل والبرهان لانهُ يُصرِّح بان العقل والايمان اخوان مصدرهما واحد هو الله ومن المستحيل ان يتنافيا ما لم يتجاوز العقل تخومهُ فيضلّ . وعليه قوله: « اذا كان الاستاذ لا يسعى في ان ينشّ وفرض ذلك في الله ضربٌ من المحال كان العلم الذي يُدخلهُ في عقل تلميذه جزءًا من علمه ولكن المبادئ التي لنا من الطبع قد غرستها فينا يد الله لان الله هو المبدع لطبيعتنا فتلك المبادئ اذن موجودة في الحكمة الالهيَّة وعليه كل ما يجيء منافياً لها يكون منافياً للحكمة الالهيَّة وكان لا يأتي عنها ولذلك كان ولا بدَّ من الاستنتاج ان قضايا الايمان لا تنافي ما لنا من العلوم الطبيعيَّة ولا بوجه من الوجوه (ضد الامم ف٧ ك ١) .

« فمن بعد ان قرَّر ما شأن الرجل الحكيم في الكشف عن الحقائق وما الغرض الذي يتوخَّاه في كلامه وكيف يتَّخذ العقل عماده لان كلامه موجَّه الى اولئك الذين لا يجحدون معنا على كتاب او شهادة وكيف يتعاون العقل والايمان في تحصيل العلوم العالية الالهيَّة من غير تصادُم ولا منافاة وما شأن العقل البشري بالنظر الى الحقائق الالهيَّة كانت او طبيعيَّة اخذ في سرد الحقائق وبيانها شابكاً بعضها ببعض على شكل سلسلة كلُّ حلقة منها إثر أُخرى من اوَّل الكتاب الى آخره وليس هنا

على استيفاء ذلك ولكننا نلمح الى الترتيب المنطقي البديع الذي توخاه بما أمكن من الايجاز

« يثبت في الكتاب الاوّل ان لا سبيل الى معرفة الله الّا بالطريق اللنّي اي بطريق الترقي من المعلول الى العلّة ثمّ ينظر بعينه الراقية الى الله في ذاته ووحدانيّته وطبيعته وصفاته وافعاله . اما في الكتاب الثاني فينظر اليه سبحانهُ من حيث هو خالق بالنظر الى مخلوقاته فتتمثل له خليقتان وهما الروحانية والجسمانيّة فيصف الاولى مبيناً ما لها من المقام العالي في سلّم الكائنات ثم يتكلّم عن النفس البشريّة وعن روحانيتها واتحادها بالبدن وعن اصلها ومدّة بقائها ولم يدع مُتنفّلاً الّا فتحهُ . واما في الكتاب الثالث فينظر في الخليقة لا في ذاتها بل من جهة نسبتها الى الله فيكشف ما بين الخير والشرّ من التباين وعمّا تقوم به سعادة الانسان او لا تقوم به وكيف يمكن الانسان ان يعاين الله . ثم ينتقل الى الكلام في عناية الله في الكائنات لا سيما في الانسان فيبطل ما يهرف به المنجّمون والجبريّة مبيناً ما قدر الشرائع والزواج والنذور والاستحقاق والنعمة والقدر والقضاء

« وبعد ان أنجز هذه الكتب الثلاثة مدعماً ما جاء به بقوة العقل والبرهان حلّق نظرهُ وولج في سرادق الوحي الالهي في حدّ ذاته وتكلم عن اعمق اسرار الدين المسيحي وهما سرّ الثالوث الاقدس وسرّ التجسد الالهي مُثبتاً اياهما ومُبطلاً ما جاء به المناصبون نقضاً لهذين السرّين العظيمين ثم تكلّم عن البعث وعن حالة السعداء وعن المدينونة الاخيرة وعمّا يؤول اليه العالم بعد ذلك القضاء الرهيب

« هذه مادّة هذا التأليف العجيب وهذا رسمهُ البارع تجد فيه جميع المسائل المهمّة متتابعة منسّقة منسكبة في ادقّ واحسن قالب والادلّة التي يتحرّاها يغرفها من اخصّ ينابيع الفلسفة وهو العلم الكليّ والعلم الالهي ولم يجارهِ فيه احدٌ فتجد في كلامه ابطال كل ما يختلقهُ الكفرة من المذاهب الزائفة قدماء كانوا او حديثين . فما لك الّا ان تفتح الخلاصة الفلسفيّة فتجد من الاساحة الوافية ما تبطل به كل ضلال يتصدّى لك في الوصول الى الحقيقة قديماً كان الضلال او حديثاً لان القديس توما لم يكن ليعرف سير الحقيقة فقط بل سير الضلال ايضاً مهما كان الامر من ينبوعه مادياً كان او عقلياً . وهذا القدر كافٍ » انتهى

فما ظهر هذا السفر الجليل حتى اتخذهُ النصارى كدستور رجعوا اليهِ في اثبات الحقائق الفلسفيَّة التي تعلمها الكنيسة الكاثوليكيَّة وفي بيان الاتفاق الكامل الموجود بين العقل والدين المستقيم. وقد قال احد كبار المتقدمين انَّ القديس توما بهذا التأليف قد فاق على نفسهِ وانهُ بطريقةٍ سوف تصبر على كلّ كوارث الدهر. وقال احد الاحبار الرومانيين انَّ الخلاصة الفلسفيَّة والخلاصة اللاهوتيَّة للقديس توما الاكويني كتابان متعاضدان متكاتفان يلزم الواحد الآخر وبهما تتوثق عروة المعارف العقليَّة والدينيَّة معاً

ولذلك قد تهافت عليهِ اهل زمانهِ ولم يزل إقبال الفلاسفة عليهِ منذ ذاك الحين حتى يومنا وقد طُبع طبعات لا تُحصى ونُقل الى كافَّة اللغات الاوربيَّة حتى اليونانيَّة ونقلهُ بعض المتنصرين من اليهود الى العبرانيَّة وكأنهم لسان واحد في اطرائهِ وتعظيم فوائدهِ

ومع شيوع هذا الكتاب في انحاء البلاد كان لا يزال مجهولاً في ظهرانينا حتى شمَّر عن ساعد الجدّ حضرة الخوري جرجس فرج صفير الموما اليهِ احد المولعين بالدروس الفلسفيَّة بيننا كما تشهد لهُ تآليفهُ العديدة فتحرَّى تعريبهُ مهما كلَّفهُ الامر من الشغل والعناء. فواصل العمل سنين متوالية حتى انجزهُ وهو الآن يقصد نشرهُ بالطبع مشفوعاً بالملحوظات والتذييلات التي تزيدهُ فائدةً

وبديهي كما لا يخفى ان كتاباً كهذا يحتاج طبعهُ الى مبالغ وافرة فلا بُدَّ لذوي الاريحيَّة المرتاحين لنشر العلوم العالية والتعاليم الراهنة ان يمدُّوا الى صاحبهِ الفاضل يد المساعدة لئلَّا يبقى الكتاب مطوراً في زاوية النسيان وعلى الاقلّ ان يبادروا بالاكتتاب في بعض نسخهِ لينشط الى مباشرة العمل. وهذا التأليف لا يزيد مع كثرة فوائدهِ على الف صفحة فيمكن ان يُطبع في جلد واحد او جلدين ليقتبس من انوارهِ الاساتذة وطلبة الفلسفة معاً

ويحسن بنا ان نختم كلامنا في هذا التأليف بقول الخالد الذكر الحبر الاعظم لاون الثالث عشر في «منشوره الرسيم في تعليم الفلسفة القويم» فانهُ يصدق في كتاب الخلاصة الفلسفيَّة بوجهٍ احرى من بقيَّة تآليف الاكويني الفلسفيَّة :

« قد دق جهبذ العلماء المدرسيين امامهم واستاذهم توما الاكويني الذي على ما قال العلامة انكرديال فايطان قد اجنّ أعظم اجلال العلماء القديسين الاقدمين فورث على نوع ما علوم جميعهم فجمع توما شتات تعاليمهم كما تُجمّع الاعضاء المتفرّقة الى جسد واحد وضمّها ورتبها بنظام عجيب واغنى خزانتها حتى تفرّد بلقب حارس الكنيسة وفخرها الخاصّ فهو حاذق العقل ذكيّ الفؤاد قويّ الذاكرة طاهر السيرة خليل الخلق لا خليل لهُ سواهُ غنيّ بالعلوم الالهيّة والبشريّة. وقلّ ما أدري من شبّههُ بالشمس لانهُ سخّن الارض باشعّة شمس فضائلهِ وملأها بساطع نور علمهِ. فما من فرع من فروع الفلسفة الّا تداولهُ بحذق وسداد فبسط الكلام بالتوالي على المنطق واقيسة البرهان وفي الباري تعالى والجواهر المجرّدة والانسان وسائر المخلوقات المحسوسة والاعمال البشريّة واصولها ومبادئها ولم يعوزهُ شيء في كل هذه الابواب لا البحث والتنقير ولا ترتيب الاقسام واتقانها المحكم ولا اتقان الاساليب ولا متانة المبادئ ولا سداد البراهين ولا صراحة الانشاء او ضبط العبارة ولا التدقيق وسهولة المأخذ في حلّ اعقد المسائل وعرضها . . . »

فتاهيك بهذا الوصف الصادق بيانًا لعظم شأن تآليف الاكويني الفلسفيّة وبالاخص تأليفهُ الذي نبشّر قرّاءنا بتعريبهِ عاقدين الرجاء بقرب نشرهِ ان شاء الله

مطبوعات شرقية جديدة

PUBLICATIONS DE LA RENAISSANCE FRANÇAISE (*Paris, 3, rue de Solférino*) : I. Benjamin Fabre : Un Initié des Sociétés Secrètes Supérieures « Franciscus A Capite Galeato », pp. XXII-454 (*Prix*, 7 *fr.* 50) = II. Coppin-Albancelli : La Question des Boy - Scouts ou Eclaireurs de France, pp. 51 = III. A. Louvel : Appel aux Hommes, pp. 153+240 = IV. H. Giraldon : La Vie est précieuse, pp. 121

مطبوعات جمعيّة النهضة الفرنسويّة في باريس

هذه اربعة تآليف اهدانا اياها السيو دي كاتلينو (M^r Émm. de Cathelineau) احد اعضاء جمعيّة النهضة الفرنسويّة وكلها بديعة في جنسها :

اوّلها كتاب نفيس نوصي بهِ كل من يريد الاطلاع على حقيقة الشيعة الماسونيّة واسرارها الخفيّة. فانّ فيهِ كتابات سرّيّة لاحد اركان الماسونيّة في القسم الثاني من القرن الثامن عشر وفي العشر الاوّل من التاسع عشر وهو المدعوّ باسم مستعار « فرنسيس الفارس المغفّر الرأس » كان يمضي بهِ رسائلهُ السرّيّة الى رؤساء الشيعة.